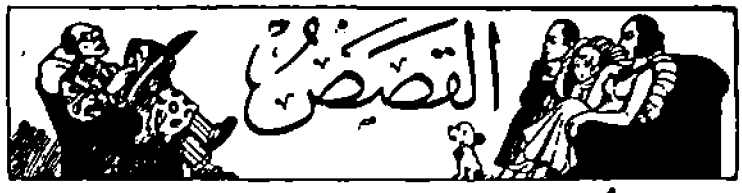


# أشجار السنديان

للكاتب الروسي الكبير ايفان بونين

للأديب حسن فتحي خليل

كنت حينئذ في الثامنة والعشرين من عمري ، ولقد حدث هذا منذ زمن بعيد ، أيام القيصر نيقولا الأول ، وكنت قد عينت ضابطاً في الحرس القيصري

وفي تلك السنة التي لن أنساها منحت إجازة أسبوعين لزيارة عائلتي في أملاكنا القريبة من ريازان حيث تقيم والدتي بمفردها بعد وفاة والدي

وما أن وصلت البلدة حتى وقعت في شباك الحب فلقد ذهبت لتفقد أملاك جدي بالقرب من قرية بتروفسكوي التي لا تبعد عن ضيعتنا كثيراً ، ومنذ ذلك اليوم وأنا أحاول أن أجد عذرا لمعاودة الذهاب إلى هناك داعما ، فالريف الروسي ريف مقفر وخاصة في فصل الشتاء ، ولكن قرية بتروفسكوي قد أحسنت الطبيعة وضعها ، يقوم على أطرافها متنزه صغير يطلقون عليه « أشجار السنديان » فهو يتاخم مجموعة من أشجار السنديان الضخمة العتيقة — يقبع تحتها كوخ قديم في محاذاة الحديقة المغطاة آنئذ بالثلوج ، ويتناثر بقربه حطام مالك المقاطعة القديم المتداعي

هناك .. وفي هذا الكوخ القابع تحت أشجار السنديان كنت أذهب يوميا لأبادل لامز محضر المحكمة الذي يقطن هناك أحاديث تافهة لامعنى لها ، محاولاً أن أكسب صداقته ، وأنا أبعث نظرات دافئة إلى زوجه الصامتة أنفيسا التي تبدو وكأنها امرأة أسبانية أكثر منها فلاحة روسية ساذجة . كانت في نصف عمر لافر ، ذلك الفلاح القاسي بوجهه الأحمر ولحيته النحاسية كأنه زعيم عصابة من اللصوص

كنت أقرأ في الصباح أي شئ يقع تحت يدي ثم أقوم إلى البيان فأعزف وأنشد أغنية « أيتها النفس .. هل تلتمسين الحب أو الفناء ؟ » وبعد تناول الغداء أستعد لقضاء الغروب في « أشجار السنديان » بالرغم من الرياح والعواصف

وهكذا انقضت عطلة عيد الميلاد وقرب ميعاد عودتي إلى عملي ، وقد أخبرت لافر وأنفيسا يوما في عدم مبالاة بقرب سفري فقال لافر ، إن خدمة الإمبراطور طبعا مقدمة على كل شئ . ثم استدار خارجا من الكوخ ليحضر شيئا ما ، وكانت أنفيسا تجلس وعلى ركبتيها ثوب تخيطه ، فتابعت زوجها بعينيها الأسبانيتين . وفي اللحظة التي أغلق فيها الباب خلفه رفعت إلي عينيها الدافئتين وقالت في همس :

« يا سيدي .. إنه سيقضي ليلته غدا في القرية ، فتعال هنا لنقضي أمسية الوداع ، لقد كنت أخفي ذلك في قلبي . ولكني الآن أصرح لك بكل شئ .. فإن أشد ما يؤلمني هو أن أفترق عنك »

ولقد غمرني هذا التصريح بالغبطة طبعا ولكني حاولت أن

---

قد تخصص كل منهم في المادة التي يدرسها ، متفرغ تفرغا تاما لخدمة هذه المادة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وتدريسها على خير ما يرجو المخلصون والمصلحون ..

ولا ننكر أن هناك بعض العوامل والموانع التي تعوق هؤلاء الأساتذة عن تنفيذ كل ما يرجون من إصلاح ، ويرون من حذف أو إضافة في بعض المواد ، أو تغيير في طرق التدريس ، أو الكتب المقررة ، إلى غير ذلك مما يدعو إليه التطور العلمي ، ولكن هذا لا يمنع من أهمية ما يدرس الآن ، وأن ننظر إلى الأزهر دائما نظرتنا إلى حصن العروبة الحصين ، ومعقل الإسلام المنيع ، وأن نتناوله بالإصلاح الشامل في رفق وتؤدة وهوادة ، ولا نهاجمه في عنف وشدة ، لنجعل ذلك طريقا إلى الشهرة ، وسبيلا إلى ذيوع الصيت ، وطيران الذكر ، موحين إلى الناس إيحاء سيئا أن الأزهر ورجاله رمز الرجعية وعنوان الجمود ..

إني أربأ بكاتب مصري أن يفعل ذلك . أو يحاوله ، لئلا يوجد الفرصة لأعداء الأزهر ، وأعداء الدين على السواء ، من التجني عليه ، والنيل منه بغير حق ، لأن الأزهر مهما حاول المحاولون ؛ هو عنوان الدراسات العربية ، والبحوث العقلية والشرعية في مصر والعالم العربي والإسلامي فيما مضى ، وفي هذا الزمان . .

عبد الحفيظ أبو السعود

أهز رأسي موافقا إذ دان لافر بعدها إلى الكوخ

ويمكنك تخيل اللهفة التي كنت أشعر بها وأنا أنتظر ذلك الموعد . لم أدر ماذا أفعل لأقطع الوقت حتى غروب اليوم التالي . وكنت أفكر في شيء واحد فحسب ، سأترك كل شيء وسأستقيل من فرقتي وأقضي بقية عمري في الريف وأربط حياتي بها حين يموت لافر . . وهكذا كنت أحدث نفسي « أنه رجل مجوز . . ويجب أن يموت وشيكا » بارغم من أني لم أضع في اعتباري أنه ما زال في الخمسين من عمره فقط

وأخيرا انقضى الليل ، فجلست أدخن في غليون وتناولت بعض الشراب وأعملتني تخيلاتي الحارة حتى انقضى النهار الشتوي القصير ، وابتدأ الظلام يهبط ، وقامت عاصفة هوجاء في الخارج . وتساءلت كيف أغادر المنزل وأي عذر أنتحله لوالدتي ؟ فلم أحر جواباً حتى خطرت لي فكرة مفاجئة . سأتسلل سرا . . وهذا كل ما في الأمر

وتظاهرت بأني متعب فلم أتناول العشاء وأويت إلى فراشي . وما أن انتهت والدتي من تناول عشائها ودلفت إلى حجرتها حتى أسرعت بارتداء ملابسي في خفة وأسرعت إلى الاسطبل وطلبت من الخادم أن يجهز لي المركبة الخفيفة

كان الجو في الخارج قاتماً حتى أنه يتعسر عليك أن ترى ما هو أمام أنفك بالرغم من الثلوج المتساقطة العاصفة . ولكن الحصان كان يعرف الطريق جيدا ، وما أن مرت نصف الساعة حتى ظهرت أشجار السنديان حول الكوخ ، ولمع الضوء الخافت في النافذة ، فربطت الحصان وألقيت عليه غطاء ثم ركضت نحو الكوخ وهناك وجدتها في أكمل زينتها ووهج شعلة الخشب يلقي على وجهها ظلالا جميلة وقد جلست على مقعد بجوار المائدة . كانت تنتظرني بكل ما في عينيها من حرارة . كانت الظلال المرتعشة تغطي جوانب الحجرة بالنسبة لذلك الضوء الخافت ، إلا أن عينيها كانتا أكثر لمعانا من كل شيء . . عيناها الواسعتان العميقتان . وكانت على المائدة أطباق بها جوز وبسكويت وإناء مملوء بالخمر المعتقة وكوبان صغيران ، بينما جلست هي وقد أولت ظهرها إلى النافذة الصغيرة المغطاة بالثلوج وقد ارتدت فستانا حريريا بأكمام واسعة وحول رقبتها عقد من المرجان وتركت شعرها الناعم يموج على كتفيها بينما يتدلى من أذنيها قرطان من الفضة ، وما أن رأتني حتى هبت واقفة وأسرعت تخلع قبعتي المغطاة بالثلج ومعطفي وسترتي ودفعتني إلى المقعد ، وفي نشوة حارة ، لم أكن أعتقد أنها قادرة عليها ، وكنت أظنها من قبل امرأة مترفعة صعبة المنال ألقت بنفسها علي واحتضنتني وهي تمسح وجهي بخديها الناعمتين

فقلت « كيف أخفيت كل ذلك حتى الوقت الذي حان فيه فراقنا ؟ »

فأجابتني في عاطفة دافقة « آه ... ماذا أفعل ؟ لقد استوليت على قلبي منذ مجيئك إلى هنا لأول مرة وكنت أشعر بآلامك ، ولكني شريفة ولم يسبق لي أن زللت ، أضف إلى ذلك أنه لم تكن هناك أية فرصة تسمح لي بأن أطلعك فيها على مكنون قلبي ، فلقد كان هو دائما بيننا ، ولم أتمكن حتى من مجرد مبادلتك نظراتك ، فهو حاد البصر كأنه النسر ، ولو لاحظ شيئا لقتلني للتو »

وعادت تحتضنني وهي تضغط يدي بين ركبتيها ، وأحسست بحرارة جسدها على فخذي فكدت أفقد توازني ، وإذا بها تنفر فجأة وتنظر إلى في اضطراب وهي تقول : « أتسمع ؟ فأرهفت أذني ولكني لم أسمع شيئا سوى زئير العاصفة . ولكنها همست قائلة : « لقد وصل . . »

وأسرعت تجلس إلى المائدة وهي تحاول ضبط أنفاسها المتلاحقة ، ثم قالت في صوت طبيعي مرتفع وهي تفرغ الإناء بيدها المرتعشة « لتشرب قليلا من خمرنا المعتقة ياسيدي ولتأكل فإنك ترتعش »

ودخل هو في هذه اللحظة وثيابه وقبعته مغطاة بالثلوج ، ونظر حوله ثم قال في صوت خفيض « مساء الخير ياسيدي » وخلع ملابسه ثم نفض عنها الثلج وعاد يقول « حسنا » يا له من جو ، لقد وصلت حتى بواش دتورى ثم وجدت أنه لا فائدة ترجى إذ سأفقد طريق لامحالة ، فذهبت إلى الخان وتناولت بعض الطعام ووجدت أنه من الأوفق أن أعود أدراجي ، فما قيمة العمل في مثل هذا الجو الثائر المجنون »

بقينا صامتين ونحن نجلس مذهولين مضطربين فقد لاحظنا أنه أدرك كل شيء من أول نظرة ، فلم ترفع عينيها إليه ، أما أنا فقد كنت أنظر نحوه من وقت إلى آخر ، ويجب أن أعترف أنه كان مهيبا وهو واقف بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين وحزامه الأخضر حول وسطه وحذائه العالي ووجهه الأحمر من لسع الريح

ولحيته تلمع فيها حبات الثلج وعينيه تفصحان عما يدور فى رأسه من أفكار مخيفة

وتقدم فأشعل قطعة أخرى من الخشب ثم جلس إلى المائدة وأمسك بإناء الخمر بأصابعه الغليظة وأفرغ منها فى الكوب ثم شربها حتى الثمالة ثم قال دون أن ينظر حوله « لا أدرى كيف ستعود ياسيدى ، لقد تأخر الوقت بك وجوادك غارق فى الثلج ، ولكن أرجو ألا تغضب منى إذا ما اعتذرت عن مصاحبتك فإنى جد متعب من رحلتى ، أضف إلى ذلك أنى مشوق إلى زوجى التى لم أرها طيلة النهار . . وعندى من الأحاديث ما أريد أن أبثها إياها »

وفى الصباح حين لاح ضوء النهار وصل أحد الفلاحين من بتروفسكوى وأخبرنا أن لافار شنق زوجه مساء الأمس بحزامه الأخضر وعلقها بخطاف فى الباب . وفى الصباح ذهب إلى بتروفسكوى وأعلن الفلاحين صائحا « يا جيرانى » لقد وقعت بى مصيبة فإن زوجتى شنقت نفسها ، لقد أصابها مس من الجنون ، فلقد عدت فى الفجر فوجدتها معلقة هناك ، وجهها أزرق ورأسها مدلى على صدرها ، كانت فى كامل زينتها لسبب ما وقد طلت خديها الحمراوين . . وها هى هناك معلقة وقدماها تكادان تلامسان الأرض « اشهدوا معى يا إخوانى » فنظروا إليه وقالوا « ما الذى فعلته أنت بنفسك أيها المحضر . كيف تأتى للحبل أن تنتف هكذا . . وما هذا الخمش فى وجهك من أعلاه إلى أسفله . وما زال جرح عينك يدمى . . هيا أوثقوه أيها الإخوان »

وكان نصيبه الجلد . . ثم أرسل إلى سيبيريا ليعمل فى المناجم

أحمد فتحى خليل


## لجنة النشر للجامعيين

قدمت عام ١٩٥١

| | | الثمن |
|---|---|---|
| النمو النفسى | للأستاذ عبد المنعم المليجى | ٢٥ قرشا |
| الدوافع النفسية | الدكتور مصطفى فهمى | ٣٠ » |
| الإمام على بن أبى طالب الجزء الأول ( الطبعة الثالثة ) | للأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود | ٢٥ » |
| لقيطة ( الطبعة الثانية ) | » محمد عبد الحليم عبد الله | ١٥ » |
| العدالة الاجتماعية فى الإسلام ( الطبعة الثانية ) | » سيد قطب | ٢٥ » |
| سلامة القس ( الطبعة الثالثة ) | » على أحمد باكثير | ١٥ » |
| تحليل الشخصية | الدكتور محمد خليفة بركات | ٢٠ » |
| أمراض الكلام | » مصطفى فهمى | ٦٠ » |
| المسيح عيسى بن مريم | للأستاذ عبد الحميد جودة السحار | ٢٥ » |
| بداية ونهاية | » نجيب محفوظ | ٢٠ » |
| عهد جديد | » شاكر خصباك | ١٥ » |
| السلسلة والنفران | » على أحمد باكثير | ١٥ » |
| محمد رسول الله ( الطبعة الثانية ) | مولاى محمد على | ٣٠ » |
| الوشاح الأبيض | » محمد عبد الحليم عبد الله | ١٥ » |
| نماذج فنية فى الأدب والنقد | » أنور المعداوى | ٢٥ » |
| بلال مؤذن الرسول ( الطبعة الثالثة ) | » عبد الحميد جودة السحار | ١٠ » |
| أبو دلامة | » على أحمد باكثير | ١٥ » |
| قصص من الكتب المقدسة | » عبد الحميد جودة السحار | ٢٠ » |

تطلب من — مكتبة مصر
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة سابقاً تليفون ٥٨٩٢٠